الحـــرب على لبـنـان وتنـاقـــضـــات المرحلة

عثمان أشقرا

صمود المقاومة اللبنانية أمام العدوان الإسرائيلي معطًى باهر، ولكنّ الانتصار ملتبس. وهذا بالطبع لا يعني التقليلَ من حجم الصمود والمقاومة وقيمتهما فهل نقول، إذن، إنّ إسرائيل لم تنتصرْ وحزبَ الله لم ينهزمْ؟ سيكون هذا نوعًا من حلّ العقدة عن طريق قطع رأسها. والواقع أنّ العرب لم يفعلوا شيئًا منذ أكثر من قرنَين سوى قطع رأس العقدة، بدلاً من حلّها الحلَّ التاريخيَّ الجذريَّ والمناسب. والعقدة هنا مزدوجة: إنّها عقدة الذات/الآخر. أمْ أنّ هذا نوعٌ من التفلسف النظري التجريدي الفارغ، في مقابل ملموسية واقع المقاومة والصمود وامتلائه؟

إنّنا (وأقصد «الأمة» العربية) اعتدْنا أن نَلْعنَ في المساء ما كنا نعبده في الصباح. وهذا منذ مرحلة «القومية» إلى مرحلة «الاشتراكية» وما بعدها والآن ـ ونحن في عزّ المدّ الإسلاموي ـ مَنْ يجرؤ على القول بأنّ حزب الله هو في الأصل حزبٌ طائفيٌّ محدود، ذو مرجعية دينية خاصة؟ وأنّ الطائفية داءٌ وبيلٌ جَلَبَ، ولا يزال يجلب، أعظمَ الكوارث على الأمة؟ وأنّ تداخُلَ الدين والسياسة (فضلاً عن هيمنة الأول على الثاني واستتباعه بالمطلق، كما هي حالةُ المرجعية الشيعية بالنسبة إلى حزب الله اللبناني) شكّلَ، ولا يزال يشكّل، لبَّ العقدة العربية؟

وحتى لا يساءَ فهمُنا، فإنّنا نبادر إلى تقديم التوضيحات التالية

١ ـ إنّ مقاومة العدوّ الإسرائيلي الغاصب والمتغطرس ـ ومنْ ورائه الولاياتُ المتحدة الأمريكية بقيادة الرئيس الأرعن جورج بوش الابن ـ واجبٌ أخلاقي وحقٌّ سياسي وعسكري مشروع. ومن ثم فإنّ تصدّي حزب الله لهذا العدوّ، وخَدْشَ الصورة التي بناها الإعلامُ المزيّف والموجّه «للجيش الذي لا يُقْهر»، واقعةٌ جديرةٌ بالاعتزاز «القومي» و«الإسلامي» لكنّ منطق الصراحة ـ صراحة المثقف الملتزم غورًا بحال الأمة ومآلها ـ يَفْرض الجهرَ ببعض التفاصيل التي قد تسير في عكس اتجاه ريح الحماس الغالبة اليوم

٢ ـ وعليه، فما ينبغي الجهرُ به بدءًا يتمثّل في أنّه، باستثناء الاحتضان الجماهيري الشعبي الواسع والعريض (وهو احتضانٌ في أغلبه أصيلٌ وعفويٌّ)، لم تَنْخرطْ أيةُ قواتٍ سياسيةٍ أو عسكريةٍ أخرى (بما فيها اللبنانية) في المعركة التي خاضها حزبُ الله ضدّ العدوان الإسرائيلي * بل إنّ بعض الأطراف اللبنانية جاهَرَ بمعارضته للحرب القائمة. وهذا يعطينا فكرةً أوليةً عن حجم التقاطبات الطائفية في لبنان؛ كما يؤشّر على ضبابية المشروع الوطني اللبناني

٣ ـ إنّ مَنْ وقفوا موقفَ السلب أو المعارضة داخل الصف العربي العريض ليسوا بالضرورة «خونةً» و«استسلاميين» بل أناسٌ تَكْمن خلفهم مصالحُ وقوى عديدةٌ، وبالتالي فهم قَدَّروا تقديراتٍ متباينةً. والصراحة تَفْرض القولَ بأنّ جزءًا من هذه التقديرات بانت هشاشتُه، بل وسَقَطَ سقوطًا مدوِّيًا بفضل صمود المقاومة وإدارتها الجيدة للصراع الناشب. وعليه، فالتحاجُجُ بأنّ في الأمر «مغامرةً» يبدو متجاوَزًا الآن؛ أو على الأقل يُمْكن فعلاً الحديثُ عن مغامرة ولكنّها مغامرة وُضعتْ لها حساباتٌ رجَّحَتْ كفّتَها. ومع ذلك، مَنْ يستطيع الإنكارَ أنّ هذا جاء على حساب ضرب لبنان في بنياته المادية وخطته الإنمائية، وأنّ مستقبل وحدة الدولة والمجتمع في لبنان يبدو غامضًا ومهزوزًا؟

٤ ـ ونصل إلى ما يمكن اعتبارُه عقدةَ العُقَد في الحرب التي خاضها حزبُ الله وخرج منها بمكاسب معنوية حاسمة: إنّها كاريزميةُ الزعيم حسن نصر الله، وإشعاعُ المثال السياسي والأخلاقي المتمثّل في حزب الله. والسؤال المصيري المطروح هنا في تقديري هو التالي: كيف سيتمّ تصريفُ هذه المكاسب وتوظيفُها في خدمة المشروع العربي القومي التنويري والحداثي، الذي يمثّل البديلَ الحقيقيَّ لتجاوز العطب العربي الذي طال واستطال حتى تحوّلَ أيُّ انتصار ـ مهما كان حجمُه ومضمونُه ـ إلى أسطورةٍ قابلةٍ للتصديق؟

المغرب

د. عثمان أشقرا

باحث وأكاديمي مغربي

* ـ تعليق الآداب: حرصًا على الحقيقة، نشير إلى وقوع عدد من الشهداء المقاتلين (يفوق العشرين) في صفوف الحزب الشيوعي، وحركة أمل، والحزب السوري القومي الاجتماعي، وأحزاب أخرى، في ميدان المواجهة مع العدوّ. وهو ما يشكّل ٢٠٪ من الشهداء المقاتلين. فاقتضى التنويه